علل الاختيارات القرآنية في سورة الضحى
دراسة تعبيرية

د. عبد الله حميد حسين & د. أثير طارق نعمان

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد الثقلين محمد خاتم الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فالقرآن منَ الله عزَّ وجلَّ، والله تعالى حكيم، وفعل الحكيم كله حكمة، فكل شيء عنده بقدر مقدر، ووصف الله تعالى القرآن بقوله: ﴿الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾[1]، فهو الذكر الحكيم والنور المبين والصراط المستقيم، الذي لَا تنقضي عجائبُه، ولَا تفنى عبرُه، ولا يخلق على كثرة الرد، يتحدى الخلق في إعجازه: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْأِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾[2].

ففي عذوبة بيانه وسمو بلاغته وجرس ألفاظه وتأثير إيقاعه وقوة تراكيبه روعةٌ يقف السامع أمامها مبهوراً، ولأجل ذلك جاء القرآن متحدياً أهل الفصاحة والبلاغة بأن يأتوا بمثله، أو بعشر سور من مثله، ثم تحداهم في آخر المطاف بأن يأتوا بسورة من مثله فهُزِموا أمام تحديه وأعلنوا عجزهم عن تقليده.

ويقف الباحث في هذا البحث عند سورة عظيمة من سور القرآن الكريم وهي سورة الضحى، فهي سورة مباركة ومن عجائب القرآن التي لا تنفد، وما ذاك إلا لأن أسلوبها صوّر لنا طبيعة العلاقة الربانية بين الله عزَّ وجلَّ ومحمد صلى الله عليه وسلم في تصوير باهر، كما أنها تظهر الصلة الوثيقة بينه سبحانه والمصطفى عليه الصلاة والسلام إظهاراً بأبهى حلة وأجمل زينة من خلال الاختيارات القرآنية الدقيقة التي تنم عن معانٍ ودلالات رائعة.

وقد كان الباحثان تواقين منذ أمد بعيد إلى أن يسطَّرا ما وقفا عليه من عجائب هذه السورة المباركة في قرطاس يأمل منه أنْ يقرأه من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، حتى حانت الفرصة المناسبة لذلك، وأملنا أن نكون أهلاً لذلك إن شاء الله.

---

[1] سورة هود: الآية (١).

[2] سورة الإسراء: الآية (٨٨).

وفي هذه الدراسة حاول الباحثان أن يعرضا دلالات ألفاظ هذه السورة بما اطلعا عليه من كتب التفسير ومعاني القرآن والغريب، ثم وقفا على صور تلك الصلة الربانية المحمدية التي لمحاها من اطلاعهما هذا.

وفي ختام هذه المقدمة نود أن نبيّن جملة أمور منها: أن سبب اختيار هذا الموضوع هو محاولة اكتشاف علل الاختيار القرآني لكلمات سورة الضحى ضمن سياقها العام، والجديد في هذا البحث هو جمع تلك الاختيارات في بحث واحد بعد أن فرقتها القرون في بطون الكتب.

ويهدف بحثنا إلى بيان طبيعة المراسلات بين الله ونبيه ورسوله وحبيبه محمد صلى الله عليه وسلم، من خلال سورة الضحى، وبذلك تكمن أهمية هذا الطرح في زمن الإساءات والتجاوزات على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم لتعريف العالم بمنزلة هذا النبي عند ربه، وبيان فضله وفضائله.

وقد اعتمد الباحثان في البحث منهج الدراسة التعبيرية لتناول تلك المفردات القرآنية التي تحتمل الاختيارات اللفظية لغوياً، وهو المنهج الأقرب إلى مثل هذه الدراسات وطبيعة البحث فيها.

وإذا كانت هناك من أسئلة يطرحها البحث في هذه المقدمة قبل الدخول في متن البحث وصلبه فنقول ما يأتي:

١. لماذا أقسم الله بـ(الضحى) و (الليل) في هذه السورة دون غيرهما من الأوقات؟ ولماذا لم يقسم سبحانه بالليل إذا سجى أولاً ثم بالضحى ثانياً؟

٢. لماذا قال الله تعالى: (ودعك) ولم يقل: (قلاك) أو (جفاك)؟ وإذا قيل: مراعاة للفاصلة القرآنية، فلماذا لم تلتزم السورة بفاصلة الألف المقصورة في آخر ثلاث آيات في السورة؟ وفي هذا السؤال نفسه نقول: لماذا قدّم (الآخرة) على (الأولى)؟

٣. ما الفرق بين: (يعطيك) و (يؤتيك)؟

٤. ما المقصود بـ(الضلال) الوارد في السورة؟ والمتعلق بنبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

٥. كيف تمت المقابلات في السورة بين اليتم والفقر والضلال؟

٦. لماذا جاء موضوع التحدث بالنعمة متأخراً؟ ولماذا قال تعالى في آخر السورة

(فحدّث) ولم يقل مثلاً: (فخبِّر) أو (فتكلم) ؟

هذا وقد جاء تقسيم البحث على النحو الآتي:

تمهيد: في التعريف بالسورة.

المطلب الأول: القسم في السورة.

المطلب الثاني: الفروقات اللغوية في السورة.

المطلب الثالث: التراتيب القرآنية في السورة.

المطلب الرابع: الفاصلة القرآنية في السورة.

هذه حصيلة جهدنا ولا ندعي أننا قد بلغنا الكمال، فإن الكمال لله وحده سبحانه، ونسأل الله تعالى أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، وأن يرزقنا ثوابه إنه نعم المولى ونعم المجيب.

التمهيد
في التعريف بالسورة

أولاً: معلومات عامة

سورة (الضحى) مكيّة بالإجماع، وعدد آياتها إحدى عشرة آية وترتيبها الثالث والتسعون بين سور المصحف بعد سورة الليل وقبل سورة الشرح، وبحسب ترتيب النزول فقد نزلت سورة الليل ثم سورة الفجر ثم سورة الضحى ثم سورة الشرح ثم سورة العصر، وفي ذلك تناسب ظاهري لا يخفى.

ثانياً: مناسبة هذه السورة

يرجّح السيوطي (ت٩١١هـ) سر ترتيبها فقال إنها: ((متصلة بسورة الليل من وجهين فإن فيها –أي: في الليل–: ﴿وَإِنَّ لَنا لَلآخِرَةَ وَالأُولَى﴾ (الليل:١٣)، وفي الضحى: ﴿وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الأُولَى﴾ (الضحى:٤)، وفي الليل: ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَى﴾ (الليل:٢١)، وفي الضحى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ (الضحى:٥)، ولما كانت سورة الضحى نازلة في شأنه صلى الله عليه وسلم افتتحت بالضحى الذي هو نور ولما كانت سورة الليل سورة أبي بكر[٣] رضي الله عنه يعنى ما عدا قصة البخيل، وكانت سورة الضحى سورة محمد

٣ الذي نزل في حق أبي بكر رضي الله عنه من سورة الليل قوله تعالى: {فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى} إلى قوله

صلى الله عليه وسلم عقّب بها ولم يجعل بينهما واسطة ليُعلم ألاّ واسطة بين محمد صلى الله عليه وسلم، وأبي بكر رضي الله عنه))[٤].

ويمكن التوصل أيضاً إلى مناسبة هذه السورة بالسورة التي سبقتها أنه تعالى لما حكم في خاتمة سورة الليل بإسعاد الأتقياء بقوله تعالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى﴾ (سورة الليل:١٧)، وكان النبي صلى الله عليه وسلم أتقى الخلق مطلقاً، وكان قد قطع عنه الوحي حيناً ابتلاء لمن شاء من عباده، وكان به صلى الله عليه وسلم صلاح الدين والدنيا والآخرة، وكان النهار والليل سببا صلاح معاش الخلق وكثير من معادهم، أقسم سبحانه وتعالى بهما على أنه أسعد الخلائق دنيا وأخرى، فقال مقدماً ما يناسب حال الأتقى الذي قصد به أبو بكر رضي الله عنه قصداً أولياً من النور الذي يملأ الأقطار، ويمحو كل ظلام يرد عليه ويصل إليه، مفهماً بما ذكر من وقت الضياء الناصع حالة أول النهار وآخر الليل التي هي ظلمة ملتف بساقها ساق النهار عند الإسفار[٥].

ثالثاً: سبب النزول

ورد في سبب نزول هذه السورة روايات كثيرة، سنحرص على استعراضها، لأن معرفة أسباب النزول جزء من فهم المعنى كما هو معروف في أدبيات علوم القرآن، وذلك على النحو الآتي:

١. أخرج البخاريّ من حديث جندب بن عبد الله ﷺ قال: احتبس جبريل عليه السلام عن النبي صلى الله عليه وسلم فقالت امرأة من قريش[٦]: أبطأ عليه شيطانه، فنزلت: ﴿وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾[٧].

٢. أخرى البخاريّ عن الأسود بن قيس قال: سمعت جندب بن سفيان قال: «اشتكى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يقم ليلتين أو ثلاثاً فجاءت امرأة فقالت: يا محمد، إني لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك، لم أره قربك منذ ليلتين أو ثلاثاً، فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى* مَا وَدَّعَكَ

تعالى: {فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى} ينظر: التفسير الكبير: ١٨٥/٣١.

٤ تناسق الدرر في تناسب السور: ١٥٢.

٥ ينظر: نظم الدرر: ٤٥٢/٨.

٦ قال ابن حجر: ((قوله: فجاءت امرأة، هي: أم جميل بنت حرب امرأة أبي لهب)). فتح الباري: ٧١٠/٨-٧١١.

٧ صحيح البخاريّ، كتاب التهجد، باب ترك القيام للمريض، برقم: (١١٢٥): ٣٧٨/١.

رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾[٨].

٣. أخرى البخاريّ عن شعبة عن الأسود بن قيس قال: قالت امرأة: يا رسول الله، ما أرى صاحبك إلا أبطأك، فنزلت: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾[٩].

٤. أخرى البخاريّ عن الأسود بن قيس قال: سمعت جندباً يقول: اشتكى النبي صلى الله عليه وسلم فلم يقم ليلة أو ليلتين فأتته امرأة فقالت: يا محمد، ما أرى شيطانك إلا قد تركك، فأنزل الله عزَّ وجلَّ:﴿وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى*مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾[١٠].

٥. أخرى مسلم عن الأسود بن قيس أنه سمع جندباً يقول: أبطأ جبريل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال المشركون: قد ودع محمد، فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾[١١].

رابعاً: وقت النزول

ثبت في الصحيح[١٢] أنها أُنزلت بعد انقطاع الوحي للمرة الثانية [١٣]، فأنزلت هذه السورة تعريضاً بالمشركين وأبطالاً لدعواهم أنَّ الوحي انقطع عن النبي صلى الله عليه وسلم.

ويتراءى الهدف من هذه السورة بوضوح بعد أن نعرف أنها نزلت بعد مرحلة تأخر نزول الوحي فيها على النبي صلى الله عليه وسلم، وأن المشركين قد أشاعوا الشائعات الكاذبة بسبب تأخر الوحي فنزلت هذه السورة الكريمة لتخرس ألسنتهم، ولتبشرّ النبي صلى الله عليه وسلم برضا ربه تعالى عليه، ولتسوق جانباً مهماً من نعم خالقه عليه، ولترشد أمته من خلال شخصه الكريم بالمداومة على مكارم الأخلاق التي من مظاهرها العطف على اليتيم والإحسان إلى السائل والتعريف بنعم الله تعالى.

---

٨ صحيح البخاريّ، كتاب تفسير القرآن، باب: ما ودعك ربك وما قلى، برقم: (٤٩٥٠): ١٨٩٢/٤.

٩ صحيح البخاريّ، كتاب تفسير القرآن، باب: ما ودعك ربك وما قلى، برقم: (٤٩٥١): الجزء والصفحة أنفسهما.

١٠ صحيح البخاريّ، كتاب التهجد، باب ترك القيام للمريض، برقم: (٤٩٨٣): ١٩٠٦/٤.

١١ صحيح مسلم، كتاب الجهاد، باب ما لقي النبي صلى الله عليه وسلم من أذى المشركين والمنافقين، برقم: (٤٦٥٧): ١٤٢١/٣.

١٢ صحيح البخاريّ، كتاب التهجد، باب ترك القيام للمريض برقم: (١١٢٥): ٣٧٨/١.

١٣ ينظر: التحرير والتنوير: ٣٩٦/٣٠،

خامساً: سبب انقطاع الوحي

اختلف المفسرون في سبب انقطاع الوحي على ثلاثة أقوال[١٤]:

أحدها: أنَّ اليهود سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذي القرنين، وعن أصحاب الكهف، وعن الروح فقال صلى الله عليه وسلم: سأخبركم غداً ولم يقل إن شاء الله فاحتبس عنه الوحي.

والثاني: وذلك بسبب شكواه صلى الله عليه وسلم من أصبع له دميت في بعض المواقع.

والأخير: لأجل جروٍ كان في بيته.

قال ابن حجر (ت٨٥٢هـ) في مناقشة هذه الآراء: ((إن من ذهب إلى أن سبب نزول هذه السورة هو شكوى رسول الله لم يصب؛ لأنها مروية عن طريق جندب، وأن نزول هذه السورة كان في أوائل البعثة وجندب لم يصحب النبي صلى الله عليه وسلم إلا متأخراً، أما قصة إبطاء جبريل بسبب كون الكلب تحت سريره فهي مشهورة؛ لكن كونها سبب نزول هذه الآية غريب بل شاذ مردود؛ لأن في إسنادها من لا يُعرف، ووقع في سيرة ابن إسحاق في سبب نزول والضحى شيء آخر، فإنه ذكر أن اليهود لما سألوا النبي صلى الله عليه وسلم عن ذي القرنين والروح وغير ذلك ووعدهم بالجواب ولم يستثن، فأبطأ عليه جبريل اثنتي عشرة ليلة أو أكثر فضاق صدره وتكلم المشركون فنزل جبريل بسورة والضحى وبجواب ما سألوا وذكر سورة الضحى هنا بعيد؛ لكن يجوز أن يكون الزمان في القصتين متقارباً فضم بعض الرواة إحدى القصتين إلى الأخرى وكل منهما لم يكن في ابتداء البعث وإنما كان بعد ذلك بمدة، وكل هذه الروايات لا تثبت والحق أن الفترة المذكورة في سبب نزول والضحى غير الفترة المذكورة في ابتداء الوحي فإن تلك دامت أياماً وهذه لم تكن إلا ليلتين أو ثلاثاً فاختلطتا على بعض الرواة))[١٥].

سادساً: مسألة انقطاع الوحي من طبيعة الرسالة

الذي نراه مع كل ما سبق أن مسألة تأخر الوحي أو انقطاعه أو احتباسه مسألة طبيعية جداً، وذلك لأنّه سنّة اللّه تعالى في نزول القرآن اقتضت أن يكون مفرقاً ومنجماً، وهذا التفريق وذلك التنجيم يتطلب أوقاتاً متقطعة لغايات منها معنوية واجتماعية، وتتضمن

[١٤] ينظر: زاد المسير: ٤٥٦/٤، واللباب في علوم الكتاب: ٣٨٤/٢٠-٣٨٥، ولباب النقول في أسباب النزول: ٢٣٠.

[١٥] فتح الباري: ٨/٣، و: ٧١٠/٨.

تلك الغايات في جملتها الرد على المشركين الذين أرادوا نزول القرآن جملة واحدة، والله سبحانه وتعالى خالفهم لأن في ذلك تشبهاً باليهود والنصارى الذين نزلت عليهم كتبهم مرة واحدة، فقد أشار الذكر الحكيم إلى هذه الحكمة في غير واحدة من الآيات، فقال سبحانه: ﴿وَقالَ الَّذينَ كَفَرُوا لَولا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرآن جُمْلَةً واحِدَةً كَذلِكَ لِنُثَبِّتَ به فُوَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾ الفرقان: ٣٢، وهذا بخلاف ما لو نزل جملة واحدة وأغلق فيها باب الوحي، وانقطعت صلة النبي صلى الله عليه وسلم بالوحي من عند الله.

كما أن احتباس الوحي لم يكن فقط في سورة الضحى، فقد وقع قبلها مرتين، فأول مرة انقطع الوحي بعد نزول سورتي: المدثر أو المزمل، أي: بعد نزول سورتين من القرآن أو ثلاث على الخلاف في الأسبق من سورتي المزمل والمدثر، وتلك المدة هي التي خشي رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكون قد انقطع عنه الوحي، وقد قيل: إن مدة انقطاع الوحي في المدة الأولى لم يشعر بها المشركون، لأنها كانت في مبدأ نزول الوحي، وقبل أن يقوم النبي صلى الله عليه وسلم بالقرآن ليلاً، والمرة الأخرى فتر الوحي بعد نزول نحو من ثمان سور، أي: السور التي نزلت بعد المرحلة الأولى، فتكون بعد نزول عشر سور، وبذلك تكون هذه السورة حادية عشر ترتيباً فيتوافق ذلك مع عددها في ترتيب نزول السور.

فضلاً عما تحمله قضية انقطاع الوحي من آثار نفسية ودعوية للنبي محمد صلى الله عليه وسلم في مراحل إعداده لأعباء النبوة وتحمله لثقل لرسالة، فتلك الانقطاعات للوحي هي اختبارات عملية من الله تعالى لرسوله ونبيه محمد صلى الله عليه وسلم، ليعلم سبحانه –وهو علام الغيوب– أهذا النبي أم الرسول حريص على مجيء الوحي وقدرته على تحمل ما فيه من مشقة وثقل مادي ومعنوي؟ أو أنه سيرتاح من هذا الانقطاع للوحي؟

المطلب الأول
القسَم في السورة

أولاً: اختيار المقسم به

ابتدأت السورة الكريمة بالقسم بقوله تعالى: ﴿وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى﴾ (الضحى:١–٢) على إنعامه سبحانه لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم وإكرامه له وإعطائه ما يرضيه، قال ابن القيّم: ((أقسم بآيتين عظيمتين من آياته دالتين على ربوبيته وحكمته ورحمته، وهما: الليل والنهار، فتأمل مطابقة هذا القسم وهو نور الضحى الذي

يوافي بعد ظلام الليل للمُقْسَم عليه، وهو نور الوحي الذي وافاه بعد احتباسه عنه حتى قال أعداؤه: ودّع محمداً ربُهُ، فأقسم بضوء النهار بعد ظلمة الليل على ضوء الوحي ونوره بعد ظلمة احتباسه واحتجابه، وأيضاً فإنّ فالق ظُلمة الليل عن ضوء النهار هو الذي فلق ظلمة الجهل والشرك بنور الوحي والنبوة، فهذان للحسِّ، وهذان للعقل))[١٦].

وهنا نلمس أن: ((المُقسَم به في آيتي الضحى صورة مادية وواقع حسي يشهد به الناس في كل يوم تألق الضوء في ضحوة النهار، ثم فتور الليل إذا سجى وسكن دون أن يختل نظام الكون أو يكون في توارد الحالين عليه ما يبعث على إنكار، بل دون أن يخطر على بال أحد أن السماء قد تخلت عن الأرض وأسلمتها إلى الظلمة والوحشة بعد تألق الضوء في ضحى النهار، فأي عجب في أن يأتي بعد أنس الوحي وتجلي نوره على المصطفى صلى الله عليه وسلم فترة سكون يفتر فيها الوحي على نحو ما نشهد من الليل الساجي يوافي بعد الضحى المتألق))[١٧].

ويقول السيوطي (ت٩١١هـ) مجلياً التلاؤم بين هذا القسم وجوابه: ((وأقسم بآيتين عظيمتين من آياته وتأمل مطابقة هذا القسم وهو نور الضحى الذي يوافي بعد ظلام الليل المقسم عليه وهو نور الوحي الذي وافاه بعد احتباسه عنه حتى قال أعداؤه ودع محمداً ربه فأقسم بضوء النهار بعد ظلمة الليل على ضوء الوحي ونوره بعد ظلمة احتباسه واحتجابه))[١٨].

ويربط ابن عادل الحنبليّ(ت٨٨٠هـ) المناسبة بالمقسم بهما (الضحى، والليل) بركائز الإيمان كأن يكون الضحى نور الجنة، والليل ظلمة النار، أو ربما الضحى نور قلوب العارفين كهيئة النهار، والليل سواد قلوب الكافرين كهيئة الليل[١٩].

ويجد سيد قطب (ت١٣٨٦هـ) أنَّ للقسم في هذه السورة صلة بمشاعر النفس ومظاهر الحياة لذا يبدو في تصوره أن الله سبحانه وتعالى يقسم بهاتين الآيتين: ((ليربط بين ظواهر الكون ومشاعر النفس ويوحي إلى القلب البشري بالحياة المتجاوبة مع هذا الوجود الجميل فيعيش ذلك القلب في أنس هذا الوجود غير موحش ولا غريب فيه فريد...فالليل هو الليل إذا سجى لا الليل على إطلاقه بوحشته وظلامه، الليل الساجي الذي يرق ويسكن ويصفو وتغشاه سحابة رقيقة من الشجى الشفيف، والتأمل الوديع

١٦ التبيان في أقسام القرآن: ٦٩.
١٧ التفسير البياني: ١/٢٦.
١٨ الإتقان في علوم القرآن: ٤/ ٥٩
١٩ ينظر: اللباب في علوم الكتاب: ٢٠/٣٨٠.

كجو اليتم والعيلة، ثم ينكشف ويجلى مع الضحى الرائق الصافي فتلتئم ألوان الصورة مع ألوان الإطار ويتم التناسق))[٢٠].

فيما يذهب الرأي بالرازيّ (ت٦٠٤هـ) إلى أن لهذا القسم دلالات كثيرة ((أحدها: كأنه تعالى يقول: الزمان ساعة، فساعة ساعة ليل، وساعة نهار، ثم يزداد فمرة تزداد ساعات الليل وتنقص ساعات النهار، ومرة بالعكس فلا تكون الزيادة لهوى ولا النقصان لقلى، بل للحكمة، كذا الرسالة وإنزال الوحي بحسب المصالح فمرة إنزال ومرة حبس، فلا كان الإنزال عن هوى، ولا كان الحبس عن قلى، وثانيها: أن العالِم لا يؤثر كلامه حتى يعمل به، فلما أمر الله تعالى بأن البينة على المدعي واليمين على مَن أنكر، لم يكن بد من أن يعمل به، فالكفار لما ادعوا أن ربه ودّعه وقلاه، قال: هاتوا الحجة فعجزوا فلزمه اليمين بأنه ما ودعه ربه وما قلاه، وثالثها: كأنه تعالى يقول: انظروا إلى جوار الليل مع النهار لا يسلم أحدهما عن الآخر بل الليل تارة يغلب وتارة يغلب فكيف تطمع أن تسلم على الخلق))[٢١].

ونرى في مناسبة القسم بـ(الضحى والليل) أنه سبحانه حين جمع في هذا القسم بين الضحى والليل إشارة واضحة إلى رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، وفيه خطابٌ كريم إليه يعبق بالرأفة والمحبة بأن ربه قد حفه بجوٍ من الأنس والرعاية في النهار والليل فهو غير مجفوٍ في هذا الوجود ولا فريد فهو المحبوبٌ وكيف يجفو الحبيب محبوبه.

نجد كل ذلك يدفعنا إلى القول إن الله سبحانه وتعالى أراد أن يثبت من هذا القَسم أن ما على الأرض من الخلائق في تلك الساعة العملية النشطة من النهار لا يعدلون تلك الساعة التي تقوم فيها الليل متهجداً، أو أنه ربما أراد أن يُقسم بتلك الساعة المباركة التي نصر بها موسى عليه السلام على السحرة وقت الضحى أمام قومه.

قال الشنقيطيّ (ت١٣٩٣هـ): ((وأقسم تعالى بالضحى والليل هنا فقط لمناسبتهما للمقسم عليه؛ لأنهما طرفا الزمن وظرف الحركة والسكون، فإنه يقول له مؤانساً: ﴿ما ودعك ربك وما قلى﴾ لا في ليل ولا في نهار))[٢٢].

وقال السعديّ (ت١٣٧٦هـ): ((أقسم تعالى بالنهار إذا انتشر ضياؤه بالضحى، وبالليل إذا سجى وادلهمت ظلمته على اعتناء الله برسوله صلى الله عليه وسلم فقال: ﴿ما ودّعك ربك﴾ أي: ما تركك منذ اعتنى بك، ولا أهملك منذ رباك ورعاك، بل لم يزل

٢٠ في ظلال القرآن: ٦٠٢/٣٠.
٢١ التفسير الكبير: ١٨٩/٣١.
٢٢ أضواء البيان: ٥٥٤/٨-٥٥٥.

يربيك أكمل تربية، ويعليك درجة بعد درجة، وما قلاك الله، أي: ما أبغضك منذ أحبك، فإن نفي الضد دليل على ثبوت ضده، والنفي المحض لا يكون مدحاً إلا إذا تضمن ثبوت كمال، فهذه حال الرسول صلى الله عليه وسلم الماضية والحاضرة أكمل حال، وأتمها محبة الله له واستمرارها وترقيته في درجات الكمال ودوام اعتناء الله به))[٢٣].

ثانياً: اختيار حرف القسم بالـ(الواو)

في هذه السورة نقف أمام صورة من صور الإعجاز البياني وهي ظاهرة القسم بـ(الواو)، فهي في هذا الموضع غير (واو) القسم التي تُستهل بها آيات قرآنية دون أن يسبقها ما يدعو إلى توثيق أو شهادة[٢٤]، فالقسم هنا: ((لتأكيد الخبر رداً على زعم المشركين أن الوحي انقطع عن النبي صلى الله عليه وسلم حين رأوه لم يقم الليل بالقرآن بضع ليال، فالتأكيد مُنصبٌ على التعريض المعَرض به لإبطال دعوى المشركين، فالتأكيد تعريض بالمشركين وأما رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا يتردد في وقوع ما يخبره الله بوقوعه))[٢٥].

والذي نذهب إليه هو أن: ((الواو قد خرجت عن أصل معناها اللغوي الأول في القسم للتعظيم، إلى معنى بلاغي وهو اللفت بإثارة بالغة إلى حسيات مدركة))[٢٦]، لا تحتمل أن تكون موضع جدل أو توطئةً إيضاحية لبيان معنويات يُمارى فيها، أو تقرير غيبيات لا تقع في نطاق الحسيات والمدركات، فالبيان القرآني أنما يجلو معاني من الهدى والحق بماديات من النور والظلمة في مختلف درجاتها، وهذا البيان للمعنوي بالحسي، وهو مدار استعمال البيان القرآني للظلمات.

والذي نفهمه من ذلك أن القسم بالواو في مستهل هذه السورة جاء لغرض بلاغي هو لفت الانتباه إلى معنويات خفية بمدركات حسية ظاهرة للعيان، وقد تأتى ذلك بالعدول بـ (الواو) عن أصل معناها الذي وضعت له في اللغة على نحو ما تخرج أساليب الأمر والنهي والاستفهام إلى غرض بلاغي وهو توظيف هذه المشاهد الحية لبيان ما لا يُدرك بالحس[٢٧].

---

٢٣ تفسير السعديّ: ٩٢٨/١.

٢٤ ينظر: الإعجاز البياني: ٢٢٧.

٢٥ التحرير والتنوير: ٣٩٤/٣٠.

٢٦ الإعجاز البياني: ٢٣٠-٣٢٣.

٢٧ ينظر: المصدر نفسه: ٢٥/١.

وقد اتجه جمهور المفسرين إلى تعظيم المُقسَم به بعد الواو في القرآن الكريم، ونحن لا نختلف معهم في أن الله سبحانه وتعالى أقسم في القرآن الكريم بآيات عظيمة من آياته سبحانه، إلا أن سعيهم إلى التماس العظمة في كل ما أقسم به سبحانه ألجأهم إلى التعسف في بيان وجه التعظيم في كل قسم وَرَدَ في القرآن الكريم بـ(الواو) إلى حد لا يظهر معنى الإعظام إلا عن تكلّف وقسر وتحميل للنص ما يأبى أن يحمله، كما أنهم خلطوا بين الإعظام والحكمة في خلق المُقسَم به، وما من شيء في هذا الكون صغيراً كان أو كبيراً خُلق عبثاً، فكل ما خلقه الله خلقه لحكمة ظاهرة أو خفية علينا، أما الإعظام فلا يهون القول به لمجرد بيان وجهٍ لظاهر الحكمة في المقُسم به بعد (الواو)[٢٨].

ثالثاً: تخصيص الضحى بالقسم في هذه السورة

قال الشنقيطيّ(ت١٣٩٣هـ): ((معنى الضحى، قيل المراد به هنا: النهار كله))[٢٩]، وقال السعديّ (ت١٣٧٦هـ): ((أقسم تعالى بالنهار إذا انتشر ضياؤه بالضحى))[٣٠]، وقال: ((أقسم ربنا جلَّ ثناؤه بالضحى وهو النهار كله، وأحسب أنه من قولهم ضحى فلان للشمس إذا ظهر منه، ومنه قوله تعالى: ﴿وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى﴾ (طه: ١١٩)، أي: لا يصيبك فيها الشمس، وقيل: عني به وقت الضحى، والضحى ساعة من ساعات النهار)).[٣١]

فالله سبحانه قال: ﴿والضحى﴾، ولم يقل الله عزَّ وجلَّ: (والشروق)، أو: (والصباح)، أو (والضياء)، أو (والنهار)؟ فإن اختيار هذا الوقت من حكمته تعالى، كما أن وقت الضحى من أشرف أوقات النهار، ففيه سنة ركعتي الضحى، ووقت الضحى يبدأ بعدما ترتفع الشمس بعشر دقائق تقريباً أي بداية الارتفاع، أي: هي في ارتفاع، وينتهي وقت الضحى ما قبل انتصاف الشمس، فالشمس في وقت الضحى دائمة الارتفاع إلى أن تصل إلى وقت الظهر، وفي ذلك تشبيه بليغ فكأن الرسالة المحمدية أو رسالة الإسلام كالشمس على الأرض التي تنير حياة الناس اليومية، كذلك الرسالة فهي تنير حياة الناس الدينية، وهي دائماً في ارتفاع كالشمس.

---

٢٨ ينظر: التفسير البياني: ١/٢٤.٢٥.

٢٩ أضواء البيان: ٨/٥٥٤–٥٥٥.

٣٠ تفسير السعديّ: ١/٩٢٨.

٣١ المصدر نفسه: ١/٩٢٩.

ولفظة الضحى وردت في اللغة بمعنى: ساعة من ساعات النهار، وبمعنى: النهار أيضاً، والمعنى الأول هو الأشهر[٣٢]، وقد اختارت طائفة من المفسرين أن (الضحى) في هذه السورة بمعنى: النهار[٣٣]، وحجتهم في ذلك أنه سبحانه استعمله بهذا المعنى في قوله تعالى: ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا﴾ (النازعات: ٢٩)، على أنه كنّى به عن النهار؛ ((لأنه أشرف أوقاته وأطيبها وفيه من انتعاش الأرواح ما ليس في سائرها))[٣٤]، ولهم على ذلك حجة أخرى أنه قابله بالليل[٣٥].

واختار غيرهم أن المراد بالضحى ها هنا الوقت بعينه، وإنما وقع ((تخصيصه بالإقسام به؛ لأنها الساعة التي كلّم الله فيها موسى عليه السلام وأُلقيَ فيها السحرة سجداً))[٣٦]، وشاهدهم على ذلك قوله تعالى على لسان موسى عليه السلام: ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحىً﴾ (طه: ٥٩).

رابعاً: تخصيص الليل بالقسم في هذه السورة

القسم بـ(الليل) هو لمقابلة (النهار)، ويرى ابن عاشور في مناسبة القسم بالضحى، والليل إنما هو إيماء إلى تمثيل نزول الوحي وحصول الاقتداء به من الناس بوقت انبثاق ضوء الشمس وانبعاث نورها في الأفق، أما الليل فيمثل وقت قيام النبي صلى الله عليه وسلم بالقرآن وهو الوقت الذي كان فيه المشركون يستمعون إلى تلاوته من بيوتهم القريبة من بيته[٣٧].

وقوله: ﴿والليل إذا سجى﴾ اختلف أهل التأويل في تأويله، فقال بعضهم: معناه والليل إذا أقبل بظلامه، وقال آخرون: بل معنى ذلك إذا ذهب، وقال آخرون: معناه إذا استوى وسكن[٣٨].

ثم إن في ذكر الليل إشارة إلى الراحة، فالإنسان يشتغل في النهار بجد وقوة فهو يحتاج إلى وقت يرتاح، وبعدها يشتاق إلى عمله النهاري مرة أخرى، وذلك فيه تقوية صلة

---

٣٢ ينظر: المفردات في غريب القرآن: ٢٩٦، ولسان العرب، مادة (ضحى): ٤٧٤/١٤.

٣٣ ينظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن: ٦٢١/١٢ ، والجامع لأحكام القرآن: ٦٢/٢٠، وروح المعاني: ٣١/٣٠.

٣٤ روح المعاني: ٣٢/٣٠.

٣٥ ينظر: الجامع لأحكام القرآن: ٦٢/٢٠.

٣٦ إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم: ٤٣٩/٦.

٣٧ ينظر: التحرير والتنوير: ٣٩٤/٣٠-٣٩٥.

٣٨ تفسير الطبريّ: ٢٢٩/١.

النبي محمد صلى الله عليه وسلم برسالته بعد انقطاع الوحي عنه، فمعنى ذلك أن الوحي لم ينقطع إلا لكي تشتاق إلى لقياه مرة أخرى، وتتهيأ وتستعد نفسياً وجسدياً وعقلياً للجديد منه.

المطلب الثاني
الفروقات اللغوية[٣٩] في السورة

أولاً: الفرق بين (سجى) و (غشى) أو (وسق)

تم اختيار لفظة (سجى) في هذه السورة، فإذا أردنا أن نعرف سبب اختيارها فنقول: لماذا لم يختر كلمة (غشى) وفيه أيضاً مراعاة للفاصلة القرآنية، أو كلمة (غسق) مخالفة للفاصلة القرآنية، وقد ورد استعمالهما مع الليل في القرآن الكريم وفي الجزء الثلاثين منه أيضاً[٤٠].

فـ(سجى) في اللغة: لها أكثر من معنى[٤١]، فهي بمعنى: ذهبَ، أو: سكن وركد، أو: تناهى ظلامه واشتد أو: غطى مثل تسجية الميت، وهذه المعاني أنسب ما تكون حمالة لمقصود الآية والسورة معاً، فالذهاب هو ذهاب الوحي، والسكن والركود: يمثل انقطاع الوحي أيضاً، وتناهى ظلامه واشتد: يمثل الحالة السوداوية التي ظنها المشركون برسول الله صلى الله عليه وسلم، وأن الله قد ترك نبيه ورسوله وانتهى الأمر، والتسجية الغطاء: لدينا أيضاً لها أثر في شكواه صلى الله عليه وسلم من اصبع له قد دميت، ولا تخفى الحاجة الطبية إلى تسجية الاصبع ولفّه، فضلاً عن تسجية المريض وتغطيته في علته.

أما كلمة (يغشى) أو (وسق) فهما تدلان على الحركة وهذا يناقض المعنى الذي أشرنا إليه في هذه السورة واختيار الأنسب للإفصاح عنها، مع قولنا بأن هاتين الكلمتين القرآنيتين ناسبت مقامهما في السياق الذي أتت به، وأدّت المعنى المناسب كما في حالتنا في هنا.

---

٣٩ المراد بمصطلح الفروقات اللغوية ما قام عليه علم الفروق اللغوية المعني بتمييز المفردات المتقاربة المعاني والتي تبدوا مترادفة إذا نظر إليها من غير تدقيق ويقوم هذا العلم على فكرة مفادها أن كل اسمين يدريان على المعاني وعين الأعيان في لغة واحدة فإن كل واحد منهما يقتضى خلاف ما يقتضيه الآخر وإلا لكان الثاني فضلاً لا يحتاج إليه. ينظر: معجم مصطلحات العلوم: ١٣٧/٢.

٤٠ قال تعالى: {والليل إذا يغش} (سورة الليل: ١)، وقال: {والليل وما وسق} (سورة الانشقاق:١٧).

٤١ ينظر: معاني القرآن: ٢٧٤/٣، والمفردات في غريب القرآن: ٢٣١، والتحرير والتنوير: ٣٩٥/٣٠، وزاد المسير: ٤٥٧/٤، والبحر المحيط: ٤٨٠/٨، واللباب في علوم الكتاب: ٢٠/ ٣٨٠.

ثم إن هذه الكلمة في أصل معناها تدل على التأني، أي: أقبل الليل رويداً رويداً، فلا تشعر إلا بدخوله، فانقطاع جبريل لم يكن مفاجأة، فقد سبق انقطاعه مرتين قبل ذلك، فكان الاختيار المناسب لهذه الكلمة أن تكون في هذا الموضع لتشع لنا بهذه الدلالات البديعة.

فالملاحظ هنا أن القرآن الكريم لم يستعمل الليل هنا على إطلاقه، بل قيده (إذا سجى)، وهذه الكلمة لم تأت مادتها في القرآن الكريم كله في غير هذا الموضع، وإذا دققنا النظر في هذه المعاني التي ذكرها المفسرون للفظة (سجى) وجدناها كلها تدور على معنى الليل بعمومه، فالليل يُقبل بعد إدبار النهار فيطبقُ بظلامه على الأرض حتى إذا استقر واستوى سكنت حركة الناس والبهائم فيه إلا شيئاً يسيراً منهم، قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً﴾ (الأنعام:٩٦)، والليل لباس يغطي ويستر لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاساً﴾(النبأ: ١٠)، فهذه المعاني كلها صالحة للتأويل، ومن الممكن أن يؤديها لفظ الليل؛ لكن لما قيّده بـ(سجى) شمل به المعاني الأخرى التي تحتملها سياق الآية والسورة كما بيّنا.

يضاف إلى ذلك ما ذكره بعض المفسرين من أن (سجى) من المحتمل أن يكون ذلك وقت قيام النبي صلى الله عليه وسلم في الليل متهجداً[٤٢]؛ لقوله تعالى: ﴿قُمِ اللَّيْلَ إِلا قَلِيلاً* نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً﴾ (المزمّل: ٢-٣).

ثانياً: الفرق بين (ودّعك) و (تركك)

في قوله تعالى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾ (الضحى:٣)، نجد اختيار كلمة (ودعك)، والسؤال الذي يفرض نفسه لماذا هذه الكلمة بالذات؟ وهل في كلمة (تركك) بديلاً ممكناً؟

إن الاختيار القرآني (ودّعك) قرئ بتخفيف (الدال)[٤٣]، وهو جواب للقسم المتقدم، ولم ترد (ودعك) في القرآن الكريم بصيغة الماضي إلا في سورة الضحى[٤٤]، ويجعل

---

٤٢ التحرير والتنوير: ٣٩٥/١٥.

٤٣ قرأ الجمهور (ما ودّعك) بتشديد الدال من التوديع وهو توديع المفارق، وقرأ عمر بن الخطاب وابن عباس وأنس وعروة بن الزبير وابنه هاشم وأبو حيوة وأبو بحرية وابن أبي عبلة ومقاتل وأبو العالية وابن يعمر وأبو حاتم عن يعقوب بتخفيف الدال من قولهم ودعه: أي تركه، ينظر: المحتسب: ٣٦٤/٢، والبحر المحيط: ٤٨٠/٨، وفتح القدير: ٦٤٨/٥.

٤٤ ينظر: التفسير البياني: ٣٣.

النحويون هذه الآية شاهداً على حذف المفعول به لتناسب الفواصل[٤٥].

ونجد أن التوديع فيه تكريم للمخاطب إذ هو تحية للسفر فيحسن ذكر المفعول مع أفعال التكريم، وحذفه مع أفعال السوء فحينئذ لا محذور فيه هذا من جهة، ومن جهة أخرى كي لا ينسب الجفاء إلى الرسول صلى الله عليه وسلم فيكون من باب أدب المخاطبة، يقال: ما أهنت ولا شتمت، فيحذف المفعول به إكراماً للمخاطب، وتقديراً لمنزلته، وترفع عن ذكر ما يشينه.

فالتصريح بالمفعول مع التوديع في هذه الآية لا محذور فيه، بل إنه لا يكون إلا بين المتحابين ولذلك صرّح الله تعالى بالضمير فقال: ما ودعك[٤٦].

وهنا وجه تكريمي آخر من الله سبحانه وتعالى لنبيه ورسوله وحبيبه محمد صلى الله عليه وسلم، وهذا الوجه يتحقق من قوله: (ما ودّعك) وقوله (ما ودّعك ربك) ، فالأول هو نفي التوديع مع صياغته بلطف لغوي كما رأينا في الفرق بينه وبين (تركك)، والآخر إسناد التوديع إلى الرب، وهو الله المربي لمحمد صلى الله عليه وسلم، وذكر فاعل الربوبية إكرام آخر في هذا الشاهد التكريمي، فلم يقل له: (ما ودّعك وما قلاك) أو (لم تودّع ولم تقلَ)، وهذا كله من أجل تقوية النفي، بمعنى: كيف يودعك وهو مربيك؟ كيف يتركك وأنت قائم تتهجد له بالليل؟ كيف يتخلى عنك وأنت حبيبه ومصطفاه؟ كيف يقيلك وأنت رسوله ونبيه؟

فالله تعالى ذكر الضمير العائد على الرسول صلى الله عليه وسلم مع التوديع وحذفه مع (القلى)، وفي هذا تكريم للرسول صلى الله عليه وسلم من أن يواجه بـ(القلى)، وهو البغض حتى لو كان ذلك في سياق النفي لما فيه من الطرد والإبعاد وشدة البغض، ومن نعَم الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم أنه يرفق به إذا عاتبه ومن ذلك قوله تعالى: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾ (التوبة:٤٣)، فانظر كيف قدّم الله تعالى عفوه على عتابه لرسوله صلى الله عليه وسلم[٤٧].

ثالثاً: الفرق بين (ربك) و (إلهك)

جاء الاختيار القرآني في هذه السورة لكلمة (ربك)، والعدول عن كلمات أخرى مثل: (إلهك)، أو لماذا لم يقل مثلاً: (ما ودّعك الله)، والفرق يمكن هنا في موضوعي الربوبية

---

٤٥ ينظر: معاني القرآن: ٢٧٤/٣، وأوضح المسالك: ١٨٤/٢.

٤٦ نظرات لغوية في القرآن الكريم: ٢٨٩.

٤٧ نظرات لغوية في القرآن الكريم: ٢٨٩.

والألوهية واختصاص كل منها؛ لأن في اختيار لفظة (الرب) بدل كلمة (الله)، أو (إلهك)؛ لأن كلمة الرب تشير إلى الربوبية وهي المذكورة في السورة نفسها من مظاهر الإنعام والرعاية والتكريم الدنيوي في مراحل العمر المتطورة، من الصغر في وضع اليتم، إلى الشبيبة في وضع الفقر، إلى الرجولة في وضع الضلال، ثم الانتقالات المصاحبة لهذه الظروف وتلك المراحل نحو الإيواء والنشأة الصالحة، إلى الغنى والاكتفاء المعيشي في الحياة، إلى الهداية؛ بل وإمامة المهتدين في هذا الطريق.

ثم إنَّ في تعريف (ربك) بالإضافة دون اسم الله العَلم لما يؤذن به لفظ (رب) من الرأفة واللطف وللتوسل إلى إضافته إلى ضمير المخاطب لما في ذلك من الإشعار بعنايته برسوله وتشريفه بإضافة رب إلى ضميره[٤٨].

رابعاً: الفرق بين (الإعطاء) و (الإتيان)

في قوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ (الضحى: ٥)، وفي هذه الآية يستوقفنا سؤال وهو: لماذا قال الله تعالى: (يعطيك)، ولم يقل: (يؤتيك)، والإتيان مصطلح قرآني مستعمل في آيات أخرى[٤٩]، فما الفرق بين هاتين الكلمتين، ولماذا كان الاختيار القرآني على ما هو عليه؟

وإنما استعمل المولى تبارك وتعالى العطاء ولم يستعمل الإتيان؛ لأن الإتيان يكون في الأمور المادية وغيرها: (الملك، الحكمة، الذكر)، أما العطاء فهو خاص بالأمور المادية قال تعالى: ﴿حَتَّى يُعْطُواْ الْجِزْيَةَ عَن يَد وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾[٥٠]، وعلى هذا فالإيتاء أوسع وأعم منه، كما أن الإيتاء قد يشمله النزع أيضاً كما قال سبحانه: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاء وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاء﴾ (آل عمران: ٢٦)، أما العطاء فهو وهب ومنح لا رجعة فيه ولصاحبه حق التصرف فيه كيفما يشاء قال تعالى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾[٥١]، أي: أصبح ملكاً للرسول صلى الله عليه وسلم.

وقد اختلف المفسرون في تأويل (يعطيك) فذكروا أصنافاً من النعم والكرامات الظاهرة والباطنة التي أنعم الله بها على نبيه الكريم صلى الله عليه وسلم وعلى أمته في

---

٤٨ التحرير والتنوير: ٣٩٨/١٥.

٤٩ قال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاء وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاء﴾ (آل عمران: ٢٦).

٥٠ سورة التوبة: من الآية (٢٩).

٥١ سورة الكوثر: الآية (١).

الدنيا والآخرة[٥٢].

وقد أخذ فن الحذف حظه من هذه الآية فقد ((حذف المفعول الثاني لـ(يعطيك) ليعمّ كل ما يرجوه صلى الله عليه وسلم من خيرٍ لنفسه ولأمته فكان مفاد هذه الجملة تعميم العطاء، وجيء بفاء التعقيب في (فترضى) لإفادة كون العطاء عاجل النفع بحيث يحصل به رضا المُعطى عند العطاء فلا يترقب أن يحصل نفعه بعد تربص))[٥٣].

وأما (اللام) في الآية التي سبقت (الإعطاء) فهي لام الابتداء لتأكيد مضمون الجملة، وأما السر في الجمع بين التأكيد بـ(اللام) والتأخير بـ(سوف)، فإن معناه: ((أن العطاء كائنٌ لا محالة وإن تأخر لما في التأخير من المصلحة))[٥٤].

المطلب الثالث
التراتيب القرآنية في السورة

أولاً: تقديم الضحى على الليل

إذا قيل ما الحكمة من أنه تعالى قدّم (الضحى) على (الليل) في هذه السورة، وهو في السورة التي قبلها (سورة الليل) قدّم ذكر الليل على النهار[٥٥]؟ وللإجابة عن هذا السؤال نختار ما ذكره الإمام الرازيّ إذ قال: ((إنه تعالى قدّم الليل على النهار في سورة أبي بكر، لأن أبا بكر سبقه كفر، وها هنا قدم الضحى لأن الرسول صلى الله عليه وسلم ما سبقه ذنب))[٥٦].

ثانياً: تقديم الآخرة على الأولى

في قوله تعالى: ﴿وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الأُولَى﴾ (الضحى: ٤)، أول ما يطالعنا في هذه الآية بعد واو العطف (اللام) وهي لام الابتداء جاءت لتأكيد مضمون الجملة[٥٧]، ولفظ الآخرة وردت مئة وثلاث عشرة مرة، بمعنى: الحياة الآخرة، إما بصريح العبارة أو بدلالة

---

٥٢ ينظر: إرشاد العقل السليم: ٦/٤٤٠.
٥٣ التحرير والتنوير: ١٥/٣٩٨.
٥٤ المصدر نفسه: ٤/٢٦٥.
٥٥ قال تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى*وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى﴾ (الليل: ١–٢).
٥٦ التفسير الكبير: ٣١/١٨٩.
٥٧ ينظر: البحر المحيط: ٨/٤٨١.

المقام والسياق[٥٨]، كما غلب لفظ الأولى على حياة الناس التي هي قبل انخرام هذا العالم، والآخرة تأتي غالباً مقابل الدنيا، والمعنى الأول في المادة هو (التأخير) فهي مؤنث الآخر، والأولى مؤنث الأول، وإذا اقترنت الآخرة بالدار أو باليوم غلب أنها اليوم الآخر، أما إذا أطلقت مفردة فهي ذات دلالة أعم يدخل فيها: النهاية، والمصير، والعقبى، سواء في هذه الحياة أو فيما بعدها، ومن هنا تظهر فائدة تأنيث الوصفين جرياً على حالتي التغليب وحالتي التوصيف، إذ يجوز أن يكون المراد هنا من كلا اللفظين كلا معنييه فيفيد أن الحياة الآخرة خير له من هذه الحياة العجلة تبشيراً له بالخيرات الأبدية، ويفيد أيضاً أن حالاته تجري على الانتقال من حالة إلى أحسن منها فتظهر فائدة التأنيث مراعاة لمعنى الحالة[٥٩].

والأظهر في سورة الضحى أن الله تعالى أراد بالآخرة الغد المرجو مجيئه لك يا محمد صلى الله عليه وسلم فهو خير لك مما سلف من أمرك أكد الله بهذا الخير الموعود نفي التوديع والقلى ليُذهب عن رسوله أثر فتور الوحي[٦٠].

فانفراد هذه الآية في سورة الضحى عن غيرها من الآيات جاء ليؤكد نفي التوديع ويزيح عن نفسه صلى الله عليه وسلم كل همٍّ سببته فترة انقطاع الوحي عنه صلى الله عليه وسلم، لأن هذه السورة خاصة بمحمد صلى الله عليه وسلم فالتوديع منفي والصلة بين الحبيب والمحبوب دائمة في هذه الدنيا وفي الآخرة حيث يكون لقاء المحبين فإنها بلا شك أفضل من أولاه ثم جاءت الآية بعدها: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ (الضحى: ٥) لتؤكد هذا الجزاء والثواب العظيم وليتكامل بها التجلي الإلهي مع المصطفى صلى الله عليه وسلم.

ويطرح الزمخشري (ت٥٣٨هـ) هنا سؤالاً يقول فيه: ((فإن قلت: كيف اتصل قوله: ﴿وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الأُولَى﴾ بما قبله؟ قلت: لما كان في ضمن نفي التوديع والقلي أن الله مواصلك بالوحي إليك وأنك حبيب الله، ولا ترى كرامة أعظم من ذلك ولا نعمة أجل منه، أخبره أن حاله في الآخرة أعظم من ذلك وأجلُّ، وهو السبق والتقدم على جميع أنبياء الله ورسله، وشهادة أمته على سائر الأمم، ورفع درجات المؤمنين، وإعلاء مراتبها بشفاعته وغير ذلك من الكرامات السنية))[٦١].

---

٥٨ ينظر: التفسير البياني: ٣٨/١.

٥٩ ينظر: التحرير والتنوير: ٣٩٧/٣٠.

٦٠ ينظر: التفسير البياني: ٣٦/١.

٦١ تفسير الكشاف: ٢٦٤/٤.

قال السامرائيّ: ((الآخرة في سورة الضحى جاءت مقابل الأولى، ولم تأت مقابل الدنيا فلم يقل: (وللآخرة خير لك من الدنيا)، ومعنى الآية: أن ما يأتي خير لك أيها الرسول مما مضى؛ أي من الآن فصاعداً فيما يستقبل من عمرك هو خير لك من الأولى، وأكّد ذلك باللام في كلمة: (وللآخرة)، وقد حصل هذا بالفعل فكل ما استقبل من حياته صلى الله عليه وسلم خير له مما حصل.

أما لماذا لم يقل: (خير لك من الدنيا)؟ لأنه لو قالها لما صحت إلا في الآخرة، فكأنما حصر الخير في الآخرة فقط، ونفى حصول الخير فيما يستقبل من حياته صلى الله عليه وسلم، وهذه الآية توكيد لما سبقها في قوله تعالى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾، ولماذا قال تعالى: (لك) ولم يقل: (وللآخرة خير من الأولى)؟ لأن هذه السورة وسورة الشرح هما خاصتان بالرسول صلى الله عليه وسلم، وهو المخاطب المباشر بهما ولو قال تعالى: ﴿وللآخرة خير من الأولى﴾، لما صح هذا القول لأنه سيكون عاماً للناس جميعاً، وهذا ما لا يحصل، وعندها ستفيد الإطلاق ولا يصح على عمومه؛ لأن بعض الناس آخرتهم شر لهم من أولاهم، ولا يصح هذا الكلام على إطلاقه، إنما لا بد من أن يخصص المعنى وهو للرسول محمد صلى الله عليه وسلم بالذات، ولهذا قال تعالى: ﴿وللآخرة خير لك من الأولى﴾[٦٢].

ثالثاً: تقديم اليتم على الإيواء

في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى﴾ (الضحى: ٦) هنا نجد أن سياق السورة يمضي ((يذكّر الرسول صلى الله عليه وسلم ما كان من شأن ربه معه منذ أول الطريق ليستحضر في خاطره جميل صنع ربه به ومودته له وفيضه عليه ويستمتع باستعادة مواقع الرحمة والود والإيناس الإلهي وهو متاع فائق تحييه الذكرى على هذا النحو البديع انظر في واقع حالك وماضي حياتك هل ودعك ربك وهل قلاك حتى قبل أن يعهد إليك بهذا الأمر! ألم تحط يتمك رعايته! ألم تدرك حيرتَك هدايتُهُ! ألم يغمر فقرَك عطاؤه!))[٦٣].

وقد جاء هذا التعداد من نعمه سبحانه وتعالى عليه صلى الله عليه وسلم لتقوية قلبه وتشجيعه على السير في طريقه التي اختارها الله له وهي طريق محمودة العواقب سليمة

---

٦٢ برنامج: لمسات البيانية، أ. د. فاضل صالح السامرائيّ، قناة الشارقة الفضائية، آرشيف شهر شعبان ١٤٢٤هـ، الأثنين من كل أسبوع الساعة: ٨:١٥ مساءً بتوقيت مكة المكرمة. موقع القناة http://www.sharjahtv.ae/.

٦٣ في ظلال القرآن: ٦٠٣/٣٠.

المغاب[٦٤]، فهو يبث في نفسه الطمأنينة فالذي أولاه كل هذه النعم ورعاه كل هذه الرعاية وانتدبه لهذا الأمر ما كان ليضيعه أو يخيب أمله[٦٥].

والقرآن استعمل (اليتم) مفرداً ومثنى وجمعاً ثلاثاً وعشرين مرة كلها بمعنى اليتم الذي هو فقدان الأب، كما نلحظ فيه اقتران اليتم بالمسكنة والجور وأكل المال وعدم الإكرام والدّع والقهر كالذي في سورة الضحى إلا أن مجيء لفظة (يتيماً) بجوار لفظة (فآوى) التي لا يخطئ الحسّ بتأويلها على أنها تدل على المأمن والملاذ والحمى تجعلنا لا نستبعد تفسير اليتم بغير ذاك الذي في القرآن، فقد ولد محمد يتيماً، ثم تضاعف يتمه بموت أمه وجده؛ لكنه تعالى نجّاه من جميع مظاهر اليتم التي سبق ذكرها إذ حضي صلى الله عليه وسلم بإيواء إلهي غير مقيد إلى ما بعده من نعمة الهداية بعد حيرة وضلال وتهيئة لحمل الرسالة الكبرى[٦٦]، فهو إيواء برحمته وعطفه وكرمه ومحبته وكيف لا يكون لمحمد صلى الله عليه وسلم ذلك والله جل جلاله يخاطبه بأنه تعالى ربه فلا يدع في نفس حبيبه من آثار اليتم شيئاً يكسر نفسه صلى الله عليه وسلم.

ومناسبة لذكر موضوع يتم النبي محمد صلى الله عليه وسلم عقب عليه جاء حكم اليتيم عموماً في هذا السورة معقباً بموضوع العناية به والإحسان إليه، فقال القرطبي (ت٦٧١هـ): ((وخص اليتيم لأنه لا ناصر له غير الله تعالى فغلظ في أمره بتغليظ العقوبة))[٦٧].

وتتميماً لمعلومة الآية نقول: إن الله جلَّ شأنه العظيم تعهد برعاية محمد صلى الله عليه وسلم (اليتيم) منذ صغره، فصانه عن دنس الشرك، وطهره، وشق صدره ونقاه، وكان رغم يتمه سيد شباب قريش، حيث قال عمه عند خطبته خديجة لزواجه بها فقال: ((فتىً لا يعادله فتى من قريش حلماً وعقلاً وخلقاً إلا رجح عليه))[٦٨].

رابعاً: تقديم الضلال على الهداية

في قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَى﴾ (الضحى: ٧)، استعمل القرآن الكريم لفظ: ((الضلال بمعنى الكفر والباطل، قال تعالى: ﴿فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلا الضَّلالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ (يونس: ٣٢)، مع بقاء الملحظ الحسي اللغوي الذي هو ضلال

٦٤ ينظر: إعراب القرآن الكريم وبيانه: ٣٤٣/٨.
٦٥ التحرير والتنوير: ٣٩٨/١٥.
٦٦ ينظر: التفسير البياني: ٤٢/١-٤٣.
٦٧ الجامع لأحكام القرآن: ٦٧/٢٠.
٦٨ تفسير ابن كثير: ٥٢٣/٤.

الطريق، بدليل اقتران الضلال بالسبيل عشرين مرة))[٦٩]، وقد ذكر المفسرون في تأويل الضلال أقوالاً كثيرةً فقالوا: ((أحدها: ضالاً عن معالم النبوة وأحكام الشريعة فهداك إليها، والثاني: أنه ضل صلى الله عليه وسلم وهو صبي صغير في شعاب مكة فرده الله إلى جده عبد المطلب، والثالث: أنه صلى الله عليه وسلم لما خرج مع ميسرة غلام خديجة رضي الله عنها أخذ إبليس بزمام ناقته فعدل به عن الطريق، فجاء جبريل فنفخ إبليس نفخة وقع منها إلى الحبشة ورده إلى القافلة فمنّ الله عليه بذلك، والرابع: أن المعنى ووجدك في قوم ضلال فهداك للتوحيد والنبوة، والخامس: ووجدك نسيا فهداك إلى الذكر، والسادس: ووجدك خاملاً لا تذكر ولا تُعرف فهدى الناس إليك حتى عرفوك))[٧٠]، وأوصلها الرازيّ إلى أكثر من عشرين قولاً[٧١].

ولا نردد في هذا الموقف إلا ما قاله الله تعالى لنبيه المصطفى صلى الله عليه وسلم: ﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الإِيمَانُ﴾ (الشورى: ٥٢)، فقد كانت حالته قبل المبعث حالة حيرة عافَ حالة قومه وأنكرها، ولكن أين الطريق المستقيم؟ وكيف المخرج والنجاة؟ ولبث على حيرته أمداً حتى جاءته الرسالة فهدته إلى الدين القيم وأبانت له سواء السبيل بعد طول حيرة وضلال[٧٢].

فالنبي محمد صلى الله عليه وسلم كان يعلم أن الذي عليه قومه ليس بالحق، وأن الحق إنما هو عند الله عزَّ وجلَّ؛ ولكنه كان بحاجة إلى من يأخذ يده إلى الطريق التي توصله إلى ربه، فهو مثل الذي يريد أن يصل إلى مكان له به شأن أو مكان يأوي إليه، لكنه لا يعلم أي طريق يسلك إليه، وهنا تتضح الصلة بين الضلال والطريق.

خامساً: تقديم العيلة على الغنى

في قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى﴾ (الضحى: ٨) لم ترد مادة عائل في القرآن الكريم كله إلا في موضعين أحدهما في سورة التوبة: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (التوبة: ٢٨)، والموضع الآخر هنا في سورة الضحى وكلاهما بمعنى الفقر[٧٣]، وقد ذكر جماعة من المفسرين أن الغنى قد تحصل له من رعاية عمه أبي طالب له وزواجه من خديجة رضي الله عنها، ثم بعد ذلك مما أفاء

٦٩ التفسير البياني: ١/٤٤.
٧٠ زاد المسير: ٤/٤٥٨.
٧١ ينظر: التفسير الكبير: ٣١/١٩٥-١٩٧.
٧٢ انظر: التفسير البياني: ١/٤٦-٤٧.
٧٣ المفردات في غريب القرآن: ٣٥٧.

الله عليه من الغنائم[٧٤].

والذي نطمئن إليه أن الله سبحانه وتعالى قد أغناه ((بالتعفف وسد الحاجة فلم يذله فقر المال، كما لم يكسر اليتم نفسه؛ بل وقاه الله وقاية نفسيةً معنوية من آثار اليتم والفقر والضلال، وليست وقاية مادية ترد له أباه الذي مات قبل مولده وتملأ خزانته بالمال وتهيئ له رغد العيش، فقد قدّر الله لمحمد أن يكون يتيماً عائلاً فأعفاه سبحانه منذ كان من تلك الآثار البغيضة وسلّم جوهره من الآفات التي كان معرضاً لها بحكم يتمه وعيلته، وبذلك تم فيه الاستعداد النفسي لتلقي الرسالة الكبرى التي بُعث بها ليقي الناس من المذلة والهوان والضلال، واستعمل القرآن في الآيات الثلاث الفعل (وجد) وهو من أفعال القلوب ولم يقل مثلا: أما كنت يتيماً، وكنت عائلاً، فسيطر الجو المعنوي النفسي على الموقف وتهيأت للرسول الطمأنينة الوجدانية لتلقي الآيات الكريمة))[٧٥].

ثم إن في علاقة هذه الآية بقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ﴾ (الضحى: ١٠)، فالمقصود بالسائل فيه قولان: ((أحدهما: سائل البر، قاله الجمهور، والمعنى: إذا جاءك السائل فأما أن تعطيه وأما أن ترده رداً ليناً، ومعنى: فلا تنهر: لا تنهره، يقال: نهره وانتهره إذا استقبله بكلام يزجره، والثاني: أنه طالب العلم))[٧٦].

ومن عجائب هذه السورة أيضاً أن: ((اليتيم والسائل منصوبان بالفعل الذي بعده وحق المنصوب أن يكون بعد الفاء والتقدير: مهما يكن من شيء فلا تقهر اليتيم ولا تنهر السائل))[٧٧].

سادساً: تقديم اليتم على الضلال على الفقر[٧٨]

في سورة الضحى يتبادر سؤال مفاده: لماذا قدّم الله تعالى هذه الآيات بهذه الطريقة: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى*وَوَجَدَكَ ضَالّاً فَهَدَى*وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى﴾ (الضحى: ٦-٨)، فنقول: هذا هو الترتيب الطبيعي في الحياة، فاليتم يقال لمن فقد والده وهو دون سن البلوغ، فإذا بلغ انتفت عنه صفة اليتم، وإذا بلغ دخل في سن التكليف الشرعي فهو يحتاج

---

٧٤ ينظر: أرشاد العقل السليم: ٤٤١/٦.

٧٥ التفسير البياني: ٥١/١.

٧٦ زاد المسير: ٤٥٩/٤.

٧٧ الجامع لأحكام القرآن: ٦٨/٢٠.

٧٨ برنامج: لمسات البيانية، أ. د. فاضل صالح السامرائيّ، قناة الشارقة الفضائية، آرشيف شهر شعبان ١٤٢٤هـ، الأثنين من كل أسبوع الساعة: ٨:١٥ مساءً بتوقيت مكة المكرمة. موقع القناة http://www.sharjahtv.ae/.

إلى الهداية ليتعلم كيف يسير في الحياة قبل أن يكون فقيراً أو غنياً، وكيف يجمع المال الحلال لأن كل مال جمع من غير طريق الهداية هو سحت، ثم تأتي العيلة وهي أمر آخر بعد البلوغ؛ من الناس من يكون فقيراً أو غنياً وعلى الاثنين أن يسيرا وفق التعاليم التي تعلماها بعد البلوغ مباشرة وهذا طبيعي، ويمر به كل الخلق فهذا هو التسلسل الطبيعي في الحياة، لذا فقد بدأ سبحانه بالحالة الأولى (اليتم) ثم إذا بلغ تأتي الهداية في المرتبة الثانية، وثالثاً العائل والغني يجب أن يسيرا على الهداية.

سابعاً: تقديم اليتيم على السائل

وفي قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ*وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ*وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ (الضحى: ٩–١١)، فالترتيب في هذه الآيات على هذا النحو أثار أَسئلة لدى المفسرين لعدم توافقه وتطابقه الظاهري مع النقطة أعلاه، في تقديم اليتم على الضلال على الفقر، فهنا قدّم اليتم على الفقر على النعم ومنها نعمة الهداية التي هي عكس الضلال، وهذا يعني أن آية اليتم جاءت بنفس تسلسل الآية وفي نسقها، وأما آية الفقر فجاءت مقابلة لآية الضلال، وأما آية النعمة فجاءت آخراً.

وهنا نلمس أن الله تعالى ((لما عدّد عليه هذه النعم الثلاث، وصّاه بثلاث كأنها مقابلة لها))[٧٩]، وتتجلى في هذا الخطاب صورة التربية الربانية التي أولاها سبحانه لمحمد صلى الله عليه وسلم على نحو فريد لا نألفه عند نبي مرسل ولا مَلك مقرّب، ونجد في هذه الآيات أيضاً: ((فن الالتزام، أو لزوم ما لا يلزم، فقد لزمت الهاء قبل الراء وفي هاتين الفاصلتين مع الالتزام تنكيت عجيب فإنه يقال: هل يجوز التبديل في القرينتين فتأتي كل واحدة مكان أختها؟ فيقال: لا يجوز ذلك، لأن النكتة في ترجيح مجيئها على ما جاءتا عليه أن اليتيم مأمور بأدبه وأقل ما يؤدب به الانتهارُ، فلا يجوز أن ينهى عن انتهاره، وإنما الذي ينهى عنه قهره وغلبته لانكساره باليتم وانعدام ناصره، فمن هاهنا ترجّح مجيء كل قرينة على ما جاءت عليه ولم يجز التبديل))[٨٠].

ويرى السامرائيّ[٨١] أن ترتيب الآيات كما ورد في السورة هو الترتيب الأمثل، فاليتيم ذكر أولاً مقابل اليتيم، ثم ذكر: ﴿وأما السائل فلا تنهر﴾ والسائل يشمل سائل العلم

٧٩ البحر المحيط: ٤٨٦/٨.

٨٠ إعراب القرآن: ٣٤٥/٨–٣٤٦.

٨١ برنامج: لمسات البيانية، أ. د. فاضل صالح السامرائيّ، قناة الشارقة الفضائية، آرشيف شهر شعبان ١٤٢٤هـ، الأثنين من كل أسبوع الساعة: ٨:١٥ مساءً بتوقيت مكة المكرمة. موقع القناة http://www.sharjahtv.ae/.

والمال معاً، وهنا أخذ بعين الاعتبار السائل عن المال والسائل عن العلم، فهي إذن تكون مقابل: ﴿ووجدك ضالاً فهدى﴾ وأيضاً: ﴿ووجدك عائلا فأغنى﴾؛ لأن السائل عن المال يجب أن لا ينهر، والسائل عن العلم يجب أن لا ينهر أيضاً، وعليه فإن الآية جاءت في المكان المناسب لتشمل الحالتين ومرتبطة بالاثنين تماماً.

فعلى قول السامرائيّ يكون المعنى الأول (السائل): سائل المعروف، مقابل قوله: ﴿وجدك عائلاً فأغنى﴾ وكان من النشر المشوش، أي المخالف لترتيب اللف[٨٢].

أما إذا تأملنا إلى المعنى الثاني فيكون قوله: ﴿أما السائل فلا تنهر﴾ مقابل قوله: ﴿ووجدك ضالاً فهدى﴾، لأن الضلال يستعدي السؤال عن الطريق، فالضال معد من صنف السائلين، والسائل عن الطريق قد يتعرض لحماقة المسؤول، فجعل الله الشكر عن هدايته إلى طريق الخير أن يوسع باله للسائلين، ويكون النشر على ترتيب اللف[٨٣].

وهنا نلمس الحكمة من استعمال كلمة (ربك) في السورة الكريمة في الموضع الذي ذكر فيه اليتم وعقّبه بالضال، والعائل، وذلك لأن اليتيم يحتاج إلى من يقوم بأمره ويرعاه ويعلمه ويوجهه ويصلح حاله، وهذه مهام الرب، واليتيم يحتاج إلى هذه الرعاية أولاً، ثم الضال يحتاج لمن يهديه والرب هو الهادي، لذا كثيرًا ما ارتبطت الهداية في القرآن الكريم بكلمة الرب قال تعالى: ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾ (يونس:٩)، وقال تعالى: ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ (طه: ٥٠)، والعائل أيضاً يحتاج إلى من يقوم على أمره ويساعده ويصلحه ويرزقه.

ثامناً: تأخير التحدث بالنعمة على الأعمال السابقة

مما نلمحه في هذه السورة أيضاً أن الله تعالى قدم النهي عن قهر اليتيم ونهر السائل على التحدث بنعمته في قوله تعالى في آخر آية بالسورة: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ (الضحى:١١)، لأنه تعالى غني وهما محتاجان وتقديم منفعة المحتاج أولى، كما أنه سبحانه جعل لهما الفعل ليحث على العمل بما أراد وأتى بالتحدث بالنعمة بالاسم فرضي سبحانه لنفسه بالقول[٨٤].

---

٨٢ التحرير والتنوير: ٤٠٢/١٥.

٨٣ المصدر نفسه: ٤٠٣/١٥.

٨٤ ينظر: التفسير الكبير: ٢٠٠/٣١.

قال ابن الجوزي: (ت٥٩٧هـ): في النعمة ثلاثة أقوال: أحدهما النبوة، الثاني: القرآن، والثالث: أنها عامة في جميع الخيرات))[٨٥].

قال السامرائيّ[٨٦]: أما: ﴿وأما بنعمة ربك فحدث﴾ فهي في أنسب ترتيب لها فإن كان المقصود بالنعمة كل ما أصاب الإنسان من خير في الدنيا فلا يمكن أن نتحدث عن النعمة إلا بعد وقوعها وليس قبل ذلك، والآيات السابقة تذكر نعم الله على الرسول فاقتضى السياق أن يكون التحدث بالنعمة آخراً، أي: بعد حدوث كل النعم على الرسول صلى الله عليه وسلم.

وإذا كان المقصود بالنعمة الدين، فيجب أن يكون التحديث في المرحلة الأخيرة؛ لأن على الداعية أن يتحلى بالخلق الكريم وفيه إشارة أن الإنسان إذا أتاه سائل عليه أن يتصف بهذه الصفات قبل أن يبلغ الناس عن النعمة (الدين) فعليه أن لا يقهر يتيماً، ولا ينهر سائلاً، ولا يرد عائلاً، وقد جاءت هذه الآية بعد إسباغ النعم وهو توجيه للدعاة قبل أن يتحدثوا أن يكونوا هينين لينين فقد قال تعالى: ﴿ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك﴾ (آل عمران: ١٥٩) فعلى الداعية أن يتحلى بالخلق الحسن ولا ينهر سائلاً.

والتحدث بالنعمة بالنسبة لسائر الناس إنما يكون بشكرها وأشاعتها، أما ما يتصل بالرسول فهو: ((أن يبلغ رسالة ربه ومن هنا نؤثر أن تكون النعمة هنا مهما يكن من دلالاتها المعجمية اللغوية هي الرسالة أكبر النعم التي يؤثر بها نبي مرسل))[٨٧].

المطلب الرابع
الفاصلة القرآنية

تضمنت هذه السورة ثلاث فواصل قرآنية موزعة على آياتها الإحدى عشر، فالآية الأولى إلى الآية الثامنة كانت مع الألف المقصورة، والآيتان التاسعة والعاشرة فهي مع فاصلة حرف الراء الساكنة، والآية الحادية عشرة الأخيرة كانت بحرف الثاء الساكنة.

---

٨٥ زاد المسير: ٤/٤٥٩.

٨٦ برنامج: لمسات البيانية، أ. د. فاضل صالح السامرائيّ، قناة الشارقة الفضائية، آرشيف شهر شعبان ١٤٢٤هـ، الأثنين من كل أسبوع الساعة: ٨:١٥ مساءً بتوقيت مكة المكرمة. موقع القناة http://www.sharjahtv.ae/.

٨٧ التفسير البياني: ١/٥٤.

وهذا الأمر الملفت للنظر في هذه السورة يثبت لنا أن البيان القرآني عدل عما هو مألوف ومتبادر من رعاية الفاصلة القرآنية وبناءً على ذلك يرجح عندنا الرأي القائل أنَّ: ((النظم القرآني ليس مبنياً على أسس لفظية فقط.

فيزعم بعض المفسرين أن طرح كاف الخطاب من: (قلى)، (آوى)، (فهدى)، (أغنى)، إنما جاء لمشاكلة رؤوس الآيات[٨٨]، وهذا هو السبب -عندهم- في عدم لحوق الكاف بهذه الكلمة، فقالوا إن الآيات الأولى من هذه السورة مختومة بالألف المقصورة لتناسب الفواصل، وكان الأصل في هذه الآية أن يقال: (قلاك)[٨٩].

أما (قلى) فقد قلنا أن السياق أقتضى تحاشي خطاب النبي صلى الله عليه وسلم في موقف الإيناس؛ لأن (قلاك) فيها من حس الطرد والإبعاد ما لا يخفى لفظه ومعناه.

ولو قال الله عزَّ وجلَّ: (وما قلاك) ربما يكون المعنى إن الله تعالى ما قلاك؛ ولكن ممكن في الأيام المقبلة يقيلك؛ ولكن في قوله: (وما قلى) أي: لا تستحق يا محمد لا في الأيام السابقة ولا اللاحقة ولا في هذه الأيام وإلى أن تموت وإلى يوم القيامة وإلى الجنة فلا ولن ولم تُقلَ.

وعن سبب ذكر مفعول الفعل ودع وهو الكاف في: (ودّعك) في هذه الآية الكريمة وحذف مفعول الفعل في: (قلى)، ولم يقل: (قلاك) نقول:

قد اختلف النحاة في سبب ذكر مفعول فعل التوديع وحذف مفعول فعل القلى، فمنهم من قال لظهور المراد، بمعنى: أن الخطاب واضح من الآيات أنه لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فالسياق أغنى عن ذكر الكاف[٩٠]، ومنهم من قال: إنها مراعاة لفواصل الآيات في السورة ا(لضحى، سجى، قلى، الأولى،...)؛ وفي القرآن الكريم يكون الذكر من باب التكريم والحذف من باب التكريم أيضاً، فلم يقل الله تعالى: (قلاك) لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم حتى لا ينسب الجفاء للرسول صلى الله عليه وسلم، فلا يقال للذي نحب ونجل: ما أهنتك ولا شتمتك؛ إنما من باب أدب المخاطبة يقال: ما أهنت وما شتمت، فيحذف المفعول به إكراماً للشخص المخاطب وتقديراً لمنزلته وترفع عن ذكر ما يشينه ولو كان بالنفي[٩١].

---

٨٨ ينظر: الدر المصون: ٣٧/١٣.

٨٩ ينظر: تفسير الكشاف: ٢٦٣/٤.

٩٠ ينظر: الإعجاز البياني: ٢٤٩.٢٥٠.

٩١ برنامج: لمسات البيانية، أ. د. فاضل صالح السامرائيّ، قناة الشارقة الفضائية، آرشيف شهر شعبان ١٤٢٤هـ، الأثنين من كل أسبوع الساعة: ٨:١٥ مساءً بتوقيت مكة المكرمة. موقع القناة

وعلى هذا فليس حذف الكاف لمراعاة الفواصل بل لمعنى شريف وهو إظهار مكانة الرسول صلى الله عليه وسلم في رعاية جنابه الشريف وزاده حسناً وجمالاً رعاية انسجام الفاصلة فالمعنى هو الأساس ثم جمّله وحسنه انسجام الفواصل.

وهكذا الشأن مع حذف الكاف في (فهدى) أنه لو ذكر الكاف أي (فهداك) فإنه سيخصص الرسول صلى الله عليه وسلم بالهداية فقط، لكنه حين حذفها أراد أنه: هداك وهدى معك الناس إلى يوم القيامة، أو بمعنى آخر: فهداك وهدى بك كثيراً.

ونرى أن حذف الكاف هنا قد وقع لتعميم الخطاب كما في الآية التي قبلها: ﴿فاغنى﴾، فالله سبحانه كرامة لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم لم يغنه هو فقط بل أغنى الذين آمنوا جميعاً معه وذلك من خلال البركة التي منّ الله بها على أمته والتشريعات التي جاء بها كالزّكاة، والصدقة والغنائم وحق المرأة في الميراث وغير ذلك.

ثم إن في إطلاق الفاصلة تكون المعاني الأخرى جميعها محتملة ما دامت الفاصلة غير مقيدة، وعندئذ سيكون معنى: (فآوى) فآواك، وآوى لك، وآوى بك، وسيكون معنى: (فأغنى) وأغناك، وأغنى لك، وأغنى بك، وسيكون معنى: (فهدى) وهداك، وهدى لك، وهدى بك، وهكذا.

واستعمل القرآن الكريم لفظتي: (تنهر) و (قهر)، ولم يأتيا بهذه الصيغة في القرآن الكريم كله في غير سورة الضحى[٩٢]؛ لأنها تحمل في طياتها دلالات موحية، فمعنى لا تنهر تعني لا تنهر السائل، يقال: نهره وانتهره إذا استقبله بكلام يزجره[٩٣]، فهو نهى عن إغلاظ القول؛ ولكن رده ببذل يسير، أو رد جميل، وأذكر فقرك[٩٤]، وأما تقهر فمعناها لا تقهر اليتيم بظلمه ولا التسلط عليه بما يؤذيه، ولا منع الحق ببالغ في التأثير ما يبلغه قوله تعالى: (تقهر)، إذ يجوز أن يقع القهر مع أنصاف اليتيم وإعطائه ماله وعدم التسلط عليه بالأذى، لأن حساسية اليتيم بحيث تتأثر بالكلمة العابرة واللفتة الجارحة عن غير قصد، والنبرة المؤلمة بلا تنبه، وإن لم يصحبها تسلط بالأذى أو غلبة على ماله وحقه[٩٥].

وأخيراً جيء بحرف الثاء في آخر فاصلة في قوله تعالى: ﴿وأما بنعمة ربك فحدث﴾ (الضحى: ١١)، وفي ذلك ما يفند زعم من يقول بالفاصلة القرآنية على حساب المعنى،

---

http://www.sharjahtv.ae/.

٩٢ ينظر: المفردات في غريب القرآن: ٤١٥.

٩٣ زاد المسير: ٤/٤٥٩.

٩٤ تفسير القرطبي: ٢٠/١٠٠-١٠٣.

٩٥ التفسير البياني: ١/٥٢.

ففي هذه الآية مثال لعدول القرآن عن رعاية الفاصلة في الآيات التي بعدها ولاسيما في آخر السورة بكلمة: (فحدّث)، إذ ليس في السورة كلها (ثاء) فاصلة، ولو كان الهمُّ الأول في القرآن هو مراعاة الفاصلة لاستعمل (فخبّر) بدلاً من (فحدث) لمشاكلة رؤوس الآيات.

فلم يقل الله عزَّ وجلَّ (فخبّر) أو (فتكلم)؛ وذلك لأن حرف الثاء عند نطقه يستخدم الإنسان اللسان والشفتين والأسنان وكأن الصوت قد خرج من فمه كله، فحرف الثاء يستخدم للكثرة والانتشار، فناسب هذا اختيار (فحدّث) أي: استمر في التحديث إلى أن تموت ومن بعدك عليه أن يحدّث بهذا.

ويرى الباحثان أن هناك أوجهاً أخرى وعلاقات مماثلة في هذه الآيات من خلال أن جو السورة العام قائم على الأضداد والمقابلات، بدءاً بالليل والضحى، الآخرة والأولى، الوداع وعدمه (نفيه)، القلى وعدمه (نفيه)، اليتم والإيواء، الضلال والهداية، الإغناء والعيلة، وكلها مرتبطة بموضوع الظلمة والنور، والضيق والفرج، والعسر واليسر.

كما أن في الآيات خروجاً عن السياق إلى أساليب معنية، والعدول عن المألوف إلى أغراض مقصودة، فلا عجب أن نرى فاصلة قرآنية جديدة في السورة، أو أن يأتي ترتيب متناسق بشكل ما على غير ما يألفه نسق البشر في جري أساليبهم، وأن نقف على اختيارات عجيبة في دقتها، وحكيمة في صياغتها، ورائعة في جمالها.

الخاتمة

بعد الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله أنهينا بحثنا المتواضع بتوفيق من الله تعالى والذي توصلنا فيه إلى نتائج عدة تهم موضوع الملامح التعبيرية في سورة الضحى أبرزها:

إن القسم بما خلق الله من ظواهر الطبيعة لا يدل فقط على عظم المُقسم به حسب، لأن كل المخلوقات عظيمة لأنها من صنع الباري عز وجل، وإنما خلط المفسرون بين الإعظام والحكمة في خلق المُقسَم به، وهنا ينبغي على المفسر الالتفات إلى المناسبة بين المقسم به وسياق السورة القرآنية فإن من شأنه أن يكشف عن غوامض السورة ودلالاتها.

إن الخطاب القرآني في سورة الضحى وإن كان خطاباً خاصاً للنبي محمد صلى الله عليه وسلم وتسلية له وإعداداً لما سيلاقي من صعاب في المراحل المقبلة من الدعوة إلا أنه في الوقت نفسه يشكل خطاباً عاماً لسائر المسلمين يذكرهم بمنزلة النبي محمد صلى

الله عليه وسلم وتعليماً لهم آداب الخطاب ومكارم الأخلاق.

إن مع تعدد وجوه المعاني والدلالات للفظ أو الجملة أو الآية فإن القرآن يبقى معجزاً تتجدد معانيه، ولا يمكن أن تنتهي بتطاول الزمان ومرور النظر والقراءات.

إن تعدد المعنى وكثرته قد تلتوي فيه بعض المعاني في أساليب البشر إلا أن القرآن خلاف ذلك كله.

إن الأساليب القرآنية تتوسع معانيها، وتزداد حلاوتها كلما منحتها فرصة أكبر في التدبر لذا كانت دعوة الله تعالى إلى قرآنه بإطالة النظر والتفكر والتدبر فيه فهو المعين الذي لا ينضب ولا ينفد.

إن الخطاب القرآني يقدم العناية بالدلالات التعبيرية والصور البلاغية على مشاكلة رؤوس الآيات.

إن التدبر الصحيح لدلالات الألفاظ وربطها بالمعاني الصحيحة يدل على دقة التركيب، وحسن السبك، وعلو النظم.

وفي ختام هذه الرحلة المباركة في رحاب هذه السورة العظيمة نقول: أن ما بين أيدينا من هذه النفحات اليسيرة تجعلنا نشهد أن القرآن الكريم كتاب عظيم من عند الله عز وجل لا تفنى عجائبه ولا يبلى من كثرة الرد ، وآخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين.

المصادر والمراجع

الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين أبو الفضل عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد السيوطي (ت١١٩هـ)، تحقيق: سعيد المندوب، دار الفكر، بيروت، ط/١، ١٤١٦هـ- ١٩٩٦م.

إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، أبو السعود محمد بن مصطفى الحنفي (ت٢٨٩هـ)، وضع حواشيه: عبد اللطيف عبد الرحمن، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٩م.

الإعجاز البياني، د.عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ)، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧١م.

إعراب القرآن الكريم وبيانه، محيي الدين الدرويش، دار ابن كثير، الرياض، ط/٨، ٢٠٠١م.

أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، أبو محمد جمال الدين بن عبد الله بن هشام الأنصاري (ت٧٦١هـ)، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت ط/٥، ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م.

البحر المحيط، محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي (ت٧٥٤هـ)، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وآخرون، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠٠١م.

التبيان في أقسام القرآن، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الشهير بابن القيم الجوزية (ت٧٥١هـ)، اعتنى به: أبو صهيب الكرمي، بيت الأفكار الدولية، بيروت، ط١، ٢٠٠٤م.

التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، دار سحنون، تونس، ط١، ١٩٩٧م.

التفسير البياني، د.عائشة عبد الرحمن، دار المعارف، القاهرة، ط٤، ١٩٧٤م.

التفسير الكبير، الإمام فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين الرازي (ت٦٠٤هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠٠٠م.

تناسق الدرر في تناسب السور، جلال الدين عبد الرحمن السيوطي (ت٩١١هـ)، تحقيق: عبد القادر أحمد عطا، دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٨٦م.

جامع البيان عن تأويل آي القرآن، محمد بن جرير الطبري (ت٣١٠هـ)، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٥م.

الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر القرطبي (ت١٧٦هـ)، تحقيق: سالم مصطفى البدري، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٠م.

الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، أحمد بن يوسف المعروف بالسمين الحلبي (ت٦٥٧هـ)، تحقيق: د. أحمد محمد الخرّاط، دار القلم، دمشق، د.ت.

روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي البغدادي (ت١٢٧٠هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ت.

زاد المسير في علم التفسير، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي (ت٧٩٥هـ)، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ٢٠٠١م.

صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي (ت٢٥٦هـ)، تحقيق: د. مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير, بيروت ط/٣، ١٤٠٧هـ — ١٩٨٧م.

صحيح مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (ت٢٦١هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ت.

فتح الباري شرح صحيح البخاري، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي (ت٨٥٢هـ)، خرّج أحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي، أشرف على طبعه وتصحيحه: محب الدين الخطيب، دار المعرفة، بيروت، ١٣٧٩هـ- ١٩٥٩م.

فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، محمد بن علي الشوكاني (ت١٢٥٠هـ)، دار الفكر ، بيروت ، د.ت.

في ظلال القرآن ، سيد قطب ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ط٥/١٩٦٧.

الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري (ت٥٣٨هـ)، دار الفكر، بيروت، ط١،١٩٧٧م.

لباب النقول في أسباب النزول، أبو بكر جلال الدين عبد الرحمن السيوطي (ت٩١١هـ)،، دار إحياء العلوم، بيروت، ط٤، ١٩٨٣م.

اللباب في علوم الكتاب، أبو حفص عمر بن علي ابن عادل الدمشقي الحنبلي توفي بعد (٨٨٠هـ)، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، ط/١، ١٤١٩ هـ-١٩٩٨م.

لسان العرب، ابن منظور الأفريقي (ت٧١١هـ)، دار صادر، بيروت، د.ت.

معاني القرآن، أبو زكريا يحيى بن زياد الفرّاء (ت٢٠٧هـ)، تحقيق: أحمد يوسف نجاتي وآخرَين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط/٢، ١٤٠٠هـ- ١٩٨٠م.

معجم مصطلحات العلم، احمد سعيد مصلوح، مطبعة الوفاء، بنغازي، ط/١، ٨٨٩١م.

المفردات في غريب القرآن، أبو القاسم الحسين بن المفضل المعروف بالراغب الأصفهاني توفي في حدود (٥٢٤هـ)، تحقيق وضبط ومراجعة: محمد خليل عيتاني، دار المعرفة، بيروت، ط٤، ٢٠٠٥م.

نظرات لغوية في القرآن الكريم، د. صالح عبد حسين العايد، دار إشبيليا للنشر والتوزيع، الرياض، ط٢، ٢٠٠٢م.

نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، برهان الدين أبو الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي (ت٨٨٥هـ)، تحقيق: عبد الرزاق غالب المهدي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٥هـ- ١٩٩٥م.